

النسق الفصيح والنسق العامي
في المنهج التعليمي للغة العربية *
للأستاذ الدكتور عباس الصوري

يدخل هذا الموضوع ضمن مسار الأبحاث التي تحاول رصد موقع اللغة العربية داخل الثقافة المعاصرة في مظاهرها المختلفة. ويبدو هذا جليا في نقاط التقاطع والحوار بين الثقافة العربية في شموليتها وبقية الثقافات المعاصرة .

الإجابة عن ذلك تقتضي منا تحليل عدة أوضاع توجد فيها لغة العروبة على محك العصر . وسنكتفي في هذا العرض بالحديث عن مدى استعداد لغتنا العربية لتؤدي مهمتها مثل سائر اللغات الحية ، خصوصا وأن الإقبال عليها في تصاعد مستمر لأسباب كثيرة .

فالعالم العربي يوجد حاليا في عمق الاهتمامات الدولية لما له من موقع وما يزخر به من ثروات ، اشتد الصراع حولها في العقود الأخيرة ، وهذا كاف لجعل لغة العرب وثقافتهم هدفا لمزيد من الاختراق . هذا فضلا عن أن اللغة العربية بحكم أهمية تراثها المتنوع وفعل حجم متكلمها الهائل ، كل ذلك أهلها لتكون ضمن اللغات الأولى في حظيرة الأمم المتحدة لغة الترجمة ، ولغاية التعارف وتبادل الصلات بين الشعوب الشقيقة والصديقة على السواء.

ثم إن العربية فوق هذا وذاك لغة الثقافة والدين لكثير من الشعوب التي تدين بالإسلام ولكنها لا تتكلم العربية مثلما هو الحال في آسيا وأفريقيا وغيرهما من المناطق ، وللمسلمين هناك اهتمام بالغ بتعلم لغة

* ألقى هذا البحث في الجلسة الثالثة عشرة من مؤتمر الدورة الخامسة والستين يوم الأربعاء ٢٩ من ذي القعدة سنة ١٤١٩ هـ الموافق ١٧ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٩ م .

يهتم بنشر اللغة العربية خارج نطاق العالم العربي وحاولنا الإلمام بعينة منها ظهرت خلال الثمانينيات لوجدنا الأعداد التالية :

70- بحثا أنجز في موضوع الظواهر النحوية والصرفية والصوتية .

80- بحثا في المشاكل التربوية وقضايا التدريس .

20- بحثا في تعليم المهارات اللغوية .

30- في بناء المناهج وتخطيطها وتصميمها.

40- في تأليف النصوص التعليمية .

50- دراسة في السياسة اللغوية .

20- بحثا في الوسائل التعليمية .

70- في ميدان التقويم .

30- في طرائق إعداد المعلمين

350- في دراسة الوضعيات اللغوية في البلاد الإسلامية ... إلخ .

فإن أضفنا إلى الرُّكام الذي

يتزايد كل سنة ما هو موجود في

السوق مما أُلّف في البلاد العربية أو

خارجها من كتب التعليم ومعاجم

القرآن الذي به يتعبدون .

لهذه الأسباب وأخرى اجتماعية

واقتصادية وسياحية أيضا ، كانت

العناية باللغة العربية شديدة ، مما

جعل المشتغلين بشؤون البيداغوجية

يركزون البحث عن أنسب السبل

لتيسير مهمة التدريس وإعداد البرامج

اللائقة والطرائق الميسرة والوسائل

الفعالة لتبسيط عملية تعلم اللغة

العربية. فماذا تحقق من ذلك ؟

إن العناية بالشيء لا تعد شرطاً

في تحصيله بالضرورة، فكثرة

الاهتمام، قد تفتح المجال لابتداع

المناهج وابتكار الأساليب ، قد تساعد

في توسيع هذا المجال ليشمل سائر

العراقيل التي تعوق اللغة العربية في

أداء مهمتها كلغة المسلمين ممن

يتكلمها ، وممن لا يتكلمها ، ولكن ذلك

ليس شرطاً في النجاح .

فإذا أخذنا على سبيل المثال لا

الحصر ، الأبحاث التي أجريت من

قبل الباحثين في معهد الخرطوم الذي

وأشرطة سمعية وبصرية سنجد حقيقة
حصيلة هائلة من الأبحاث في الطرق
والمناهج والأساليب المتنوعة في
أهدافها وفي محتوياتها وفي منظورها
ولكنها جميعا تعد أداة لتقريب العربية
لمن يود تعلم المستوى الفصيح منها ،
فماذا نستفيد من كل هذه الجهود ؟
سنرى ذلك على المستويات التالية :

1- على مستوى الأهداف .

2- على مستوى المنهاج .

3- الطريقة المتبعة .

4- المحتوى .

1- على مستوى الأهداف :

يمكن أن ننظر إلى تعلم اللغة
العربية لغايات لغوية محضّة كما
يمكن أن ندرسها لغاية ثقافية . ومن
الصعوبة الفصل بينهما ، ويبدو أن
هذا التقسيم متأّت من إقبال الدارسين
من غير العرب على معرفة اللغة
والذين أعدّت لهم برامج دون الاهتمام
بالجانب الثقافي الذي يوقع في
الإحراج بالنسبة لهؤلاء عندما يتعلق

الأمر بدراسة نصوص القرآن
والحديث والسنة والفكر الإسلامي
لأنها تعد من مكونات الثقافة الإسلامية.
إن الرهان على الدرس اللغوي
المحض محفوف بكثير من المزالق ،
وعلى رأسها كون اللغة ليست مجرد
متن جامد وإنما هي عالم حي يحكي
تجربة قوم بثوا فيها خلاصة عواطفهم
وسجلوا فيها مختلف رؤاهم الفكرية
في الكون وفي الناس وفي الحياة .

2- على مستوى المنهاج :

هناك المنهاج الخاص بتعليم العربية
لأهلها ، وهو يروج عادة في الدول
العربية. وهناك المنهاج الموجه
للطلاب المسلمين من غير العرب مثل
المناهج الرائجة في السعودية ومصر
(بالأزهر) ، وبعض البلاد المشرقية
الأخرى، ولها طابع ديني . وهناك
المناهج الموجهة لغير المسلمين ،
ويحاول أصحابها أن ينسجوا على
منوال الكتب السياحية التي تباع اللغة
مثل أي إنتاج سياحي آخر ، فهي

مجرد قواعد تحفظ ومبادئ تعرف بواسطتها القوانين التي تتحكم في الصرف والنحو والبلاغة ، اللغة - كما يقول ابن جني - أصوات ... أي ألفاظ وعبارات منطوقة ومسموعة، وسواء أكانت العربية تدرس للمسلمين من غير العرب أم لغيرهم من الشعوب الأخرى ، فالأصوات في اللغة العربية تطرح مشاكل تتصل بالاستماع أولاً ثم التلفظ ثانياً ، وهندسة الأصوات مثل هندسة الكتابة. فكما أن الدارسين تبقى في نفوسهم أشياء من إرغامهم على الكتابة من اليمين بدلاً من اليسار الذي ألفوه ، فكذلك يجدون غرابة لا تنتهي تجاه نظام الأصوات العربية .

فهناك إذن مشكل النطق لأن الطرق الحديثة كلها أجمعت على إعطاء لغة الحديث الأهمية الكبرى وبها تكون البداية في المستويات الأولى ، ومنها التي تسعى إلى جعل لغة الكتابة بعد تعلم المشافهة مثلما

تسعى لتبسيط الدروس إلى حد تصبح معها مجرد جمل وتعابير جاهزة قصد تبادل الحديث في شؤون الحياة العادية...

3- على مستوى الطريقة :

هناك الطرق التقليدية التي تجعل من درس العربية أداة للتقافة الإسلامية ، فهي تعتمد على القراءة والنحو للمرور سريعاً إلى متون الفقه والشريعة والأدب.

وهناك المناهج الموجهة لغير المسلمين، وهي تتبنى أساساً على ما يسمى بالطرق الحديثة وهي تهدف إلى تركيز على لغة الحديث ، لذلك استعملت الآلات السمعية والبصرية التي تساعد على تحقيق ذلك ، وإلى هذا النوع نشير - في حديثنا - لأهميته وسرعة انتشاره :

4- على مستوى المحتوى :

أي مستوى المحتوى اللغوي الذي نهدف إلى تبليغه : وهنا نصل إلى عمق المشكل ، فاللغة أساساً ليست

يحصل في تعلم اللغات الغربية وهذا ما يجعل تعلم العربية يقع في دائرة مغلقة ، الخروج منها يتم عبر منعطفين : إما تعليم المشافهة الفصيحة أو تعليم المشافهة غير الفصيحة .

- بالنسبة للاتجاه الفصيح: يجد تبرير موقفه في أن المشافهة بغير الفصحى تتم ليس بعامية واحدة وإنما بعاميات مختلفة ، معظمها يتميز بعدم الانقياد في قواعده، وطريقة كتابته ، وضبط نظامه الصوتي والصرفي. فما هي اللغة العربية العامية أو العاميات التي يجب تدريسها للطلاب الأجانب ؟ إن كان الجواب هينا في الاختيار فهو ليس ممكنا على مستوى الإنجاز والتحقيق ... ولا مجال للخوض في اللغة العامية الأقرب إلى الفصحى أو السقوط في فخ التفاضل... لهذا اختار هذا الاتجاه (الفصحى) لأنها لغة العرب جميعا ، وبها يمكن التفاهم في جميع الدول العربية .

-الاتجاه الثاني : يرى أن الفصحى

تصلح للدراسة الأكاديمية ولمعرفة الدين والأدب والثقافة ، أما من يرد أن يحتك بالعرب في حياتهم اليومية ويعرف كيف يخاطبهم ، فالفصحى وحدها غير كافية ، بل يمكن أن تكون عامل إحباط في التعامل مع العرب بسبب صعوبة مخارج الحروف وكثرة الاشتقاقات، وأنواع الأفعال والجموع إلخ ...

والواقع أن هذه الثنائية: ثنائية اللغة والكلام ، الفصحى والعامية ، الفكر والممارسة ... هو مشكل تعليم جميع اللغات ، لكن بنسب متفاوتة طبعا ، وهو يجد له حلا في الثقافات التي لا يوجد فيها تباعد كبير بين اللغة العالمية (لغة الثقافة) والفكر، واللغة العامية؛ لغة السوق والتواصل البسيط.. لكن في العربية الأمر يختلف، فقد يصل التباعد إلى حد الاختلاف ، وللمهتمين بالموضوع مواقف مختلفة :
-الموقف التقليدي من العامية :

التجاهل ، وهي عند أصحابه تشكل

ووضعوا لها قواميس لترجمتها وحاول بعضهم رسم الخرائط اللغوية مثلما فعل " ولقنسن " في محاولته وضع جغرافية لهجية للعالم العربي أو كما فعل " كانتينو " الفرنسي في دراسته للهجة حوران وتدمر إلخ ...

ولمحمد جواد النوري أطروحة حول " لهجة نابلس " الفلسطينية 1973 ، ويرى إبراهيم أنيس في كتابه " في اللهجات العربية " . " أن مثل هذه الدراسات من شأنها أن تخدم اللغة الفصحى " ، وهو في الغالب يقصد اللهجات العربية القديمة . إن هذه الدراسات لا تخدم اللغة الفصحى - كما يرى أنيس - بصفة مباشرة ، وإنما تكون جهود أصحابها أساسا لإقامة الدرس اللغوي اللهجي ، أما معظم هذه الدراسات فيقوم على أساس البحث التاريخي لمعرفة ماضي اللغة وتراثها أو يكون الهدف لغويا لإثبات العلاقة مثلا بين الفصحى والعامية ، فماذا عن هذا الموقف الأخير ؟

خطراً على الفصحى، لذلك وجب تنقية الدرس الموجه للعرب ولغير العرب من جميع الشوائب العامية ، ويكون المعيار عندهم هو المتون الأدبية الكلاسيكية ، وهي الجديرة بالدرس ، وهي أساس الوحدة بين العرب وما سواها بعد خرقا يجب محاربتة ... وتقوم البيداغوجية عند هؤلاء على مفهوم الخطأ انطلاقاً من المعيار .

- الموقف البيداغوجي :

المشكل يكمن أساساً في كيفية تأسيس الدرس اللغوي بالعامية إن كان لوجود هذا الدرس ضرورة. وكيف يمكن التحكم في الخلافات بين العاميات؟ وما هو النموذج المطلوب في النطق والنبر والتنغيم؟ وما الموقف من التداخل بين العامية والفصحى؟ ولحد الساعة ، لا توجد تجارب لنقل العاميات عن طريق المشافهة إلى الدرس الكتابي المبني على ضوابط متفق عليها ، فالمستشرقون اهتموا بالعاميات كثيراً

-الموقف اللغوي :

مشكلة هذه الدراسات أنها تغفل أولاً التفاعل الاجتماعي اللغوي ، فهناك نوع من هذه الدراسات في بعده عن التفاعل المذكور يتخذ سبلاً سهلة لضبط عنصر التجانس بين الفصحى والعامية، وهكذا تخلط هذه الدراسات بين عدة مفاهيم مثل مفهوم " الاندراجية " الذي تذكره تصريحاً ولكنها تقيم مفاهيمها عليه ضمناً . فهذا المفهوم عند اللسانيين يحيل على معني " التغير " ومعنى التغير يوضحونه بدرجة من درجات التطور، والتطور يقام على أساس مبدأ "الأصل - الفرع "، وإذا فهمنا العلاقة بين الفصحى والعامية على هذا الأساس أي على أساس التغير اللغوي، سنجد بعض اللغويين يرون أن العلاقة بين الأصل والفرع لا تشكل قطيعة . يقول د. منذر عياشي في كتابه " قضايا لسانية وحضارية " إن الفارق بين الفصحى والدارجة فارق في

الأداء لا يمس السطح "، أما القطيعة " فهي مسافة لسانية تفصل بين لغة وأصلها التاريخي المنسلخة عنه ... تشكل انفجاراً يصيب اللغة الأم ويحيلها إلى لغات متباعدة " ، وليس بهذا المعنى تعيش الفصحى تطورها ، فالتطور بالنسبة إليها استمرار للماضي في الحاضر... وهذا التطور الخاص للغة العربية يعكسه حضور التراث في كل مناطق المتن المعجمي للغة العامية ؛ لكن المسألة ليست من البساطة للحسم فيها بهذه الطريقة .

فالتغير الذي يحصل في لغة ما خلال مسارها التاريخي له أبعاد متعددة : هناك الزماني والمكاني والتغير الفردي للمتكلمين : يكون نفسياً وفسولوجياً .

يقول ابن خلدون في المقدمة : " لغة العرب العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير ، وذلك أنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المصري ، ولم يُفقد منها

-المستوى النحوي والصرفي : وهو الذي أشار إليه ابن خلدون ، ولعله أخطر أنواع التغيير الذي إذا تجاوز حدا معيناً يحدث القطيعة ، أما التغييرات على مستوى الأصوات والمفردات فهو شيء طبيعي .

ويبدو لي أن بعض الدارسين قلبوا النظرية بقولهم بعد تغيير الدلالة ومحاولة البرهنة على ثباتها دون تغيير في العامية . مما جعل في المغرب عندنا ، بعض علمائنا يعملون على إصدار بعض الجداول الأخرى للاستدلال بها على أن العامية لا تشكل مظهراً من مظاهر التطور ، وإنما هي في حد ذاتها أصل وغيرها تفرع عنها . ويبدو لي أن هؤلاء - وعلى رأسهم الأستاذ الشاعر محمد الحطوي - لاحظوا شبه قطيعة مع الفصحى في الحياة الاجتماعية ، وأن انتشار التعليم وارتفاع المستوى الثقافي بين المتعلمين أذكى في نفوس اللغويين البحث عن العودة إلى ماضي الثقافة

إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير .

حسب هذا النص ، فالتغيير الذي أصاب لغة المشافهة في زمن ابن خلدون أصابها في دلالة الحركات (أي الإعراب) أما بنية الكلام فقد بقيت على (سنن اللسان المصري) كما يقول ، واستعاض الناس إذ ذاك بالتقديم والتأخير (أي التركيز على الرتبة) بدل حركات الإعراب . التغيير إذن يكون على عدة مستويات :

-المستوى الصوتي : وهو رائج حتى في الفصحى ذاتها (وهو من أكثر المشكلات صعوبة في البحث اللساني كما يرى " دوسوسير " وغيره .

-المستوى المعجمي : وهو مجال انتقال المفردات وتغييرات دلالاتها ، وتغيير بنيتها الصوتية وما يحدث فيها من إسقاط وحذف أو تسكين أو إدغام وإبدال ودمج .

العربية النير ، فأرادوا أن ينبهوهم إلى ما تتوفر عليه العامية من رصيد أثيل يجب الإمام به قبل البحث عن التجديد، لاحظ مثلا الأستاذ الحلوى أن مفردات مثل الأفعال: كرس ، كرّس، كشط ، والأسماء مثل : الكيدر ، الغطار ، الغراف إلخ ... هي ألفاظ فصيحة ولكنها ضائعة ، ودراسة هذا الرصيد اللهجي المهجور ، يطرح عدة مشاكل رغم الإغراء الذي يجعل المرء يعتقد أنه من اليسر سد الثغرة بين الفصحى والعامية .

والواقع أن مثل هذه الأبحاث لها أهمية كبيرة في معارفنا على مستويات أخرى ، فنحن إذا عدنا إلى هذه الرسوبات الفصيحة في القاموس العامي لنبحث متى حصل تقاطعها ؟ وأين ؟ وحينئذ نبحث في " كيف " ؟ وقد حاول باحثون في المغرب (وفي المشرق أيضا) الإجابة عن " كيف " هاته ، لكن المفروض أن يكون ذلك وفق منهج واضح وقواعد

لغوية محكمة يمكن بواسطتها تحديد ما يحدث بين لغتين من اقتراض أو استعارة أو تضمين بفعل - صلة القرابة والجوار ووحدة الأرومة أو بفعل الهيمنة والإقصاء . فلفظة " خايب " التي يعزّيها الأستاذ الحلوى مثلا - في أحد جداوله - إلى مادة " خاب " (من قولنا خاب سعيه) ، لا ندري هل هي فعلا، عندما دخلت في القاموس العامي ؟ هل وردت من هذه المادة المذكورة أو أنها مشتقة من مادة أخرى أقرب إلى المعنى العامي؟ وهو معنى الدمامة والقبح (معناها في العامية) ، وقد وجدت هذا اللفظ صدفة في رسالة الغفران هكذا " خيعاب " . كما أورد أبو العلاء في هذه الرسالة ألفاظا أخرى من صميم عاميتنا مثل: البرمة، والطارمة، والرتاج ... إلخ .

فالباحث عندما عالج في العامية مثلا هذه الأفعال مشتقة في جداوله :

فالعامية طوعت كثيراً من الصيغ وهي أبطأ من حيث التطور من غيرها، ولناخذ على ذلك فقط مثال: «اسم الآلة» كيف تطور في الفصحى ولكن العامية جاءت لتحسم بتوسيع مجال صيغ اسم الآلة ليشمل حاجيات العصر من مستجدات نحتاج إليها في المعمل وفي البيت وفي الحياة العامة وذلك بإضافة صيغ أخرى إلى الصيغ الثلاث المعروفة ومن هذه الصيغ المستحدثة صيغة " فعالة" مثل ثلاجة وغسالة وكسّارة ... إلخ .

عباس الصوري

عضو المجمع المراسل

من المغرب

كربع - كرفس - كردس - كردع وهي رباعية ، لم ينبهنا إلى الأصل الثلاثي الفصيحي: ربع، رفس ، هرس ، ردع ...

وأن الكاف الزائدة في شكلها (ك / ك) ما هي إلا زيادة لمعنى ، حصلت خارج قاعدة " سألتمونيها " المعروفة ، وقد نبه على ذلك قديماً فقهاء اللغة بصدد تحليل أصولية الفعل الرباعي المجرد ...

والذي نريد أن نلفت الانتباه إليه هو أن القاموس العامي ، مثلما لاحظ ذلك الأستاذ إبراهيم السامرائي ، منبها إلى ما في دراسة هذا القاموس من فائدة للفصحى ودعمها لها ،